

هل تكريم الأدباء تكفير عن خطاياهم؟

الأدباء المستقلون لا يمكن النظر إليهم إلا حين يأخذهم الموت



لا يفيد التكريم بعد الموت (لوحة للفنان سمير الصفي)

مخلوقات براد الشاي المغلي"، "حماسة وقهقهات الحمير الذكية"، "اشتعال رأس الميت"، "عشق كوب عصير الجواقة".

سيناريو متكرر

ما حدث مع محمد حافظ رجب من تأجيل لتكريمه والاعتراف بمنجزه وتاريخه إلى ما بعد رحيله، تكرر من قبل مع الكثيرين من الأدباء والمبدعين والفنانين، المعروفين باستقلاليتهم إلى حد كبير، ومعارضتهم، وجرأتهم، ونزعتهم الانتقادية العالية، وعدم انكبابهم الفج على موالاة السلطة الرسمية وترديد مقولات المؤسسة الثقافية.

من هؤلاء الذين تأخر تكريمهم والاحتفاء بهم ومنحهم الجوائز الكبرى، على سبيل المثال لا الحصر، الكاتب لبنين الرملي، صاحب الأعمال المسرحية والتلفزيونية والسينمائية التي طالت أحدثت أزمات ومشكلات مع النظام. ولم ينل الروائي إبراهيم أصلان، صاحب "ملك الحزين" و"عصافير النيل" و"حجرتان وصالة" و"صديق قديم" و"خلوة الغلبان" و"حكايات من فضل الله عثمان"، والملقب بصوت البسطة وضمير المهتمين، جائزة النيل في الأدب، إلا في عام 2012، بعد وفاته أيضا ببضعة أشهر.

ما حدث من تجاهل مع القاص محمد حافظ رجب تكريمه مع الكثيرين من الأدباء والمبدعين والنقاد المستقلين

ولم يتم الالتفات إلى جهود الناقد والمترجم على شلش، على مدار حياته، رغم دوره الملموس في الاهتمام بالأدب الأفريقي على وجه الخصوص، ترجمة وتعريفا وتحليلا، من خلال مجموعة من الكتب الفارقة التي جرى تسليط الضوء عليها بعد وفاته. ودفع شلش ثمن استقلاله واستغناؤه، وتعرض للسجن لأكثر من عامين في ستينات القرن الماضي بتهمة "التخابر مع دولة أجنبية" بعد حضوره لقاء مع الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

بالمثل، تعرض شاعر العامية أحمد فؤاد نجم، المعارض السياسي لنظام الرئيس أنور السادات واتفاقية كاصب يفيد مع إسرائيل، للسجن عدة مرات بسبب قصائده المعبرة عن الاحتجاج الجماهيري، خصوصا التي اقترنت بغناء الشيخ إمام. ومع أنه تم تخفيف القيضة الأمنية عن نجم في عهد الرئيس الراحل حسني مبارك، فإن مؤسسات الدولة لم تجرؤ على تكريمه، وقد توفي في ديسمبر 2013، ونال وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى؛ بعد رحيله.

على، سارعت عقب وفاته بالإعلان عن اعتزامها إصدار عدد من كتبه غير المنشورة من قبل، وإعادة نشر المجموعة القصصية المشتركة "عيش وملح"، التي تضم نصوصه مع الأدباء سيد خميس ومحمد جاد وعباس محمد عباس وعزالدين نجيب والدسوقي فهيمي. كما نعت الهيئة من وصفه بفقيه مصر والأدب العربي قائلة "وداعا وحزنا بحجم ما منحنا، تستعد الهيئة لتكريم اسمه وإبداعه".

وإلى اتحاد كتاب مصر بدلوه في شريط التاب "وداعا رائد فن القصة في العالم العربي، الذي ترك تراثا مهماً تنتفع به الأجيال".

ضريبة التمرد

يمكن تفسير التجاهل الذي تعرض له محمد حافظ رجب طوال حياته من جانب المؤسسات الرسمية بأنه ضريبة الاستقلالية وابتعاده عن التشل وجماعات المصالح المتبادلة، وانحيازه فقط للتمرد الإبداعي والسياسي الذي انطلقت منه تجربته الأدبية والحياتية، فهو على مدار تاريخه أحد الراضين للثواب المستقرة والأوضاع القائمة، ما شكّل إزعاجا للأنظمة التي لا ترهب بالتغيير والتطوير، وتكف الأضواء عادة على أهل الثقة من المثقفين والأدباء التابعين والموجهين.

أطلق رجب صيحته المشاكسة "نحن جيل بلا أساتذة"، واختار ميكر التجديد ومغايرة السائد الجمالي والاجتماعي والسياسي في آن. ومنذ خمسينات القرن الماضي، توطدت علاقته بالتنظيم الماركسي، وأدباء اليسار ونقاده، وخاض محنا وأزمات متتالية بسبب اختياراته وانتماءاته، وتعرض لمناوشات البوليس السياسي، والشرطة كثيرا.

إلى جانب معاناته في القاهرة التي وجد نفسه فيها غريبا مغضوبا عليه، فإنه لم يجد الدعم اللازم من كافة المستويات، فغادرها واحتجب عن الكتابة سنوات طويلة بعدما صار "حطام إنسان" على حد تعبيره، بسبب رفضه الانحناء، وقاده التمرد النفسي إلى الاحتجاج بمصحات علاجية من فرط إحساسه بالقهر.

على الصعيد الإبداعي والجمالي، يُعزى إلى محمد حافظ رجب النهوض بالقصة العربية القصيرة، وتطويرها، بالتوازي مع ما قدمه رفيقه يوسف إدريس، وما أنجزه نجيب محفوظ في الرواية.

وأسهمت كتابات رجب في فتح آفاق جديدة للقصة القصيرة، وارتداد عوالم السوربالية والواقعية السحرية في وقت مبكر، ومرزج الواقعي بأجواء الأسلام والأساطير والهولوسات وانزياحات اللاوعي، كما في مجموعته اللافتة التي خلخت طرائق السرر المنطوية، ومنها "غرباء"، "الكرة ورأس الرجل"،

تثار الشكوك بقوة في عالمنا العربي حول نوايا المؤسسات الثقافية الرسمية التي لا تكاد تتذكر الأدباء والمبدعين من غير دائرة حلفائها وأصدقائها إلا بعد رحيلهم، فتسارع وقتئذ بالإعلان عن الرغبة في الاحتفاء بهم وترويجهم بالجوائز والأوسمة وطبع مؤلفاتهم الكاملة وربما إقامة مؤتمرات حول منجزاتهم، ما يدعو إلى التساؤل حول قيمة هكذا نوع من الاحتفاء.

بعد ساعات قليلة من رحيل القاص الراحل محمد حافظ رجب، انتهت حالة الصمت المدبرة التي فرضت على حياته بالكامل، لتأتي وعود التكريمات ومنحه الجوائز الرسمية على هيئة طوفان صاحب كاسح، وكان وزارة الثقافة ومؤسساتها وهيئاتها تتبارى في تقديم واجب العزاء في صورة اعتذارات ومبادرات للتصالح مع الاسم الإبداعي الذي جرى عزله حيا، وبخسه حقه المعنوي والمادي.

هذا التهميش المتعمد للكاتب الغد من جانب وزارة الثقافة إيناس عبدالدايم والكيانات الرسمية، استدعاؤه أخوه الأصغر الروائي والصحافي السيد حافظ في نعيه الذي شحنه بالمرارة والوجعة المركبة "مات أخي الأكبر، المعلم للأجيال ولي، الكاتب العظيم محمد حافظ رجب، حاربه الجميع وتأثر به الجميع، من أول نجيب محفوظ حتى إبراهيم أصلان وأحمد الشيخ. الكل تأثر به، وأنا طبعيا. وداعا يا محمد. أنت غيرت مجرى القصة القصيرة في العالم العربي".

وأضاف "رجل الذي لم يمنحه المجلس الأعلى للثقافة جائزة تقديرية ولا جائزة تفوق ولا جائزة تشجيعية ولا معاشا استثنائيا، ولا تمت طباعة أعماله الكاملة في الهيئة العامة للكتاب، ولا إقامة مؤتمر باسمه مناقشة أعماله في أية جهة ثقافية. سافضكم".

وكان المؤسسة الثقافية تكتشف محمد حافظ رجب للمرة الأولى بعد رحيله، حين أعلن مسؤول في أكاديمية الفنون بالقاهرة ترشيح المعهد العالي للنقد الفني له لنيل جائزة الدولة التقديرية في الأدب للعام الجاري 2021، وأن ذلك الفوز إن تحقق لا يخالف لوائح المجلس الأعلى للثقافة للحصول على جوائز الدولة.

وكتب شوكت المصري أستاذ النقد الأدبي بالأكاديمية على صفحته بالفيسبوك "الله يعلم كم حاولت كي ينال محمد حافظ رجب بعضا مما يستحق، لكن كثيرا من الأحياء أكثر قسوة من الحياة ومن الموت ذاته، طبت حيث أنت، في عليين".

لم تنشر الهيئة المصرية العامة للكتاب أعمال رجب، الذي صدرت مؤلفاته القصصية المهمة في دور نشر خاصة، على رأسها دار "العين" التي نشرت أعماله الكاملة في مجلدين، لكن هيئة الكتاب برئاسة هيثم الحاج

شريف الشافعي
كاتب مصري

مع كل غياب لاسم من المبدعين أو الأدباء النابئين في مصر، وأخرهم القاص محمد حافظ رجب، تنتفض المؤسسات الثقافية باجندة التكريمات والاحتفالات، وهنا تتجدد التساؤلات: أين كانت هذه الالتفات والاستحقاقات في حياة هؤلاء الأدباء؟ وهل تنبئ بعد موتهم بعطائيا من الدولة أم أنها استمرار في سلسلة المناورات والخطايا إزاء المبدعين المستقلين والمعارضين وغير المحسوبين على حظيرة التجديج والتبعية؟

لم يخطف الموت الكاتب محمد حافظ رجب بغتة في شبابه مثلا ليقال إن وزارة الثقافة المصرية ومؤسساتها وهيئاتها كانت تعد لتقديره والاعتداد بمنجزه البارز وتجهز لتكريمه وتروجه بجوائزها وأوسمتها الكبرى في أقرب فرصة ممكنة.

فالقاص الإسكندري، الذي يعد من أبرز رواد التجديد المصريين والعرب في القصة القصيرة، رحل عن عالمنا في 12 فبراير الجاري عن عمر ناهز ستة وثمانين عاما، لم ينل خلالها شيئا واحدا من صور الاحتفاء والتكريم التي وعدت بها بحماسة منقطع النظير مؤسسات الدولة في أعقاب رحيله الصامت، ذلك الرحيل الذي اختتم به حياة عنوانها التهميش والإقصاء والمضايقة والاضطهاد.

طوفان اعتذارات

تكررت هذه الأمور والظواهر كثيرا مع الأدباء والمثقفين والمبدعين الوائزين، خصوصا المشاكسين من غير ذوي الوفاق مع السلطة الثقافية المهيمنة، فلم ينالوا جائزة الدولة التقديرية أو جائزة النيل أو وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى مثلا إلا بعد توقف قلوبهم عن الخفقان، وسكوت أصواتهم عن ترويض ما يغضب المسؤولين وبخالف جوقه المتملقين والمنفعيين والمؤيدين على طول الخط. هم فقط بإغماضهم عينهم إلى الأبد يُمكن النظر إليهم بعيون تزعم الحيادية، وتضممر الرغبة في إبراء الذمة شكلا، وغسيل السمعة ظاهريا، وكسب تعاطف المشهيد الثقافي، وإسماك العصا من المنتصف.

تكثر نماذج هؤلاء المكرمين والمحتفى بهم بعد رحيلهم في مصر، فمنهم المسرحي لبنين الرملي والشاعر أحمد فؤاد نجم والروائي إبراهيم أصلان والناقد علي شلش، وغيرهم.

بسام مخلوف ينتقل من كتابة الشعر المحكي إلى الدراما

دمشق - جاء الشاعر والكاتب السوري بسام مخلوف من عبادة الشعر المحكي ببساطته والتصاقه بالارض، ليكون المسلسل الدرامي الاجتماعي "دفا" الذي انطلقت مؤخرًا عمليات تصويره، باكورة أعماله الدرامية ونقله من كتابة القصيدة العامية باللهجة السورية إلى تأليف السيناريو.

المسلسل الذي يخرج سامي الجنادي وتنتجه المؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني يقول عنه مخلوف في حديث معه "دفا ليس عملي الدرامي الأول الذي كتبه، بل سبقته أعمال أخرى ولكنه الأول الذي يرى النور، وسعيت من خلاله إلى أن أسلط الضوء على قضية أجدتها جدا وتتصل بالصراع الذي يعيشه شبابنا بين البقاء في الوطن أو السفر".

ويضيف مخلوف "كتبت العمل عام 2017 بهدف تشجيع الشباب على التمسك بوطنهم والعمل والإصرار على النجاح من أجل النهوض بسوريا من جديد، حيث يعني أبطال المسلسل وهم خريجون جامعيون من البطالة ولكنهم يقررون تحدي الظروف الصعبة وينشئون مطعما بديرونة بأنفسهم ويصبحون محط أنظار الناس وزوار البلاد".

وحول ارتباط القصيدة المحكية بالغناء يوضح مخلوف أن المطرب عندما يسعى إلى أغنية يغنيها يذهب إلى الشعر المحكي ويبحث عن عمق الإحساس والمشاعر الصادقة التي تحتل مساحة واسعة في قلبه وعقله.

كما يحتفي مخلوف بالقافية ويزخرفها ويزينها ضمن القصيدة الواحدة مبينا أنه يكتب مثل الملحن الذي يضع علاماته الموسيقية فتارة يعلو بالكلمات وتارة يهبط باتجاه الهدوء وهنا تكمن جمالية القصيدة برأيه في تحريك مشاعر المستمع.

والشعر المحكي يتميز بمرورته وقدرته الفائقة على تناول حالات اجتماعية وذاتية، لكن بعض النقاد يرون أن هذا النمط من القصائد لا يرقى إلى مستوى الشعر واللغة والفن، فهو يعبر عن قضايا تعتبر ردة فعل عن القهر والخنوع والالم والحب والمشاعر وبالتالي يسمونه على أنه تعبير عاطفي وكأنه لسان حال مرحلة ما لا أكثر ولا أقل. لكن مخلوف لا يرى ذلك في ما يكتبه أو في ما يراه من أهمية للشعر المحكي، إذ يؤكد أن الشعر المحكي هو الأقرب إلى وجدان وضمائر الناس وبذلك تذهب القصيدة المحكية إلى أبعد مدى في التعبير عن مشاعر وأحاسيس وهموم ومشاكل الناس.

وعرب مخلوف عن أسفه لأن الشعر المحكي لا يحظى اليوم بالكثير من الاهتمام من المؤسسات الثقافية حيث يرفضه البعض لأنهم وفقا لرأيه لا يجيدون التعبير من خلاله. ويشير إلى أن القصيدة المحكية موعلة في القدم وكان لها وجود في قصائد القبائل العربية القديمة والتي كانت لها عدة لهجات وهي ابنة القصيدة الفصحى وتتمتد جذورها من لغة الضاد.



شاعر يحاول بعث الأمل في الشباب

الشعر المحكي هو الأقرب إلى وجدان الناس وضمائرهم، فالقصيدة أكثر قدرة على التعبير عن مشاعرهم وهمومهم

وأعرب مخلوف عن أمله في أن يلقى العمل إعجاب الجمهور لدى عرضه في الموسم الرمضاني القادم.

مخلوف الذي عشق القصيدة المحكية وكتبها بطريقة الخاصة ينحت حروفها لتكون لوحة فنية تحاكي خيال العشاق، وله بصمة مع عدد من الشعراء في تأسيس مهرجان سنوي للزلزل والشعر المحكي في سوريا كما كانت له عدة مشاركات في مهرجانات وملتقيات وأمسيات شعرية ومقابلات تلفزيونية. وكان الوطن وقضاياها من الأعمدة صلبة في قصائده، فكتب عن سوريا وتاريخها والمقاومة والحب والعزل والام والغراق والوفاء والحزن معاتبيا الحياة وقسوتها.

والشعر المحكي الشعبي، هو المنظوم باللهجة العامية أو الدارجة، وهو الشعر الذي لا يتقيد بقواعد إعراب اللغة وصرفها، ولا يبحر الشعر التي نجدها في الشعر الشعبي التقليدي أو بالفصحى.

ويلتصم هذا النمط من الشعر مع القضايا الاجتماعية والوطنية والأحداث، حيث صور من خلاله الشعراء الشعبيون في دمشق (الشام)، جميع ما جرى من أفعال وردود أفعال، سياسية واجتماعية واقتصادية، خاصة في زمن